المشرق

الصليب قوّة الله

نظر لاهوتي اجتماعي صناعيّ للاب لويس شيخو اليسوعي

ليس هذا العنوان لنا بل للملاك المصطفى ورسول الامم بولس الالهيّ فانهُ في رسالتهِ الاولى الى اهل كورنتس (١ : ٢٣—٢٤) أعلن بدون خجل قائلاً : « أفنا نحن نكرز بالمسيح مصلوباً شكًّا لليهود وجهالةً للامم امّا للمدعوّين من اليهود واليونانيين فهو قوّة الله وحكمتهُ ». ولعمري انّ لفي هذا القول سرًّا لا يستطيع ادراكهُ من يرى الامور في نظر البشر ولم يَستنر بنور الوحي وبحقائق الدين فيصدق قولهُ تعالى في اشعيا (٥٥ : ٨) : « كما علَتِ السماوات عن الارض كذلك طُرقي علت عن طُرقكم وافكاري عن افكاركم ».

فبنسبة وقوع جمعة الآلام في اواخر هذا الشهر احببنا ان نبحث عن هذا السرّ ونتحقّق كيف جعلَ الله في الصليب قوّتهُ منذ قدّسهُ ابنهُ الالهي بالامهِ وموتهِ كما يُشرّف العَلَم بعد رجوعهِ من ساحة الوغى ظافراً ممجّداً وإن مزّقتهُ قذائفُ العدوّ وتشوّه بدماء ناشريهِ

١ الصليب في نظر اللاهوتي

يرى اللاهوتي في نظرهِ للصليب ما يدلّهُ على عنايةٍ خاصّة في اختيارهِ تعالى لهُ كآلة استشهاد ابنهِ الوحيد. خُلق الانسان منتصباً سويًّا على خلاف بقيّة الحيوانات ليجرّد نظرهُ عن الارض ويرفعهُ الى السماء فكأنهُ جذرُ الصليب المرتكز على الحضيض

وقد ركّب تعالى على جانبيهِ ذراعين يمدُّهما لابراز اجلّ عواطف نفسهِ من حنان واستعطاف ودعاء فكانهما عضادتا الصليب في تمام هيئتهِ

على انَّهُ تعالى الذي أبدع هيئة الانسان على شكل الصليب وفَّر في الطبيعة صورتهُ العجيبة فان في النبات طائفةً تُعرف بالصليبيَّة (Crucifères) وفي السماء ابراج تمثل الصليب فدُعيت بهِ كالصليب الشمالي والصليب الجنوبيّ . ومن امعن النظر في مشاهد الطبيعة لا يكاد يخطو خطوةً الَّا يجد للصليب صورةً

ومع توفير تلك الصورة سبق الله جلّ وعزّ وأعلن سلفاً ما يعدّ للصليب من الاكرام. افتح الاسفار المنزلة ترَ الشواهد على ما نقول. جاء في سفر الخروج (١٧ : ١٠—١٣) عن موسى كليم الله انهُ لمَّا خرج بنو اسرائيل لمحاربة العمالقة كان هو على الجبل رافعاً يديهِ اليهِ تعالى على شكل صليب يطلب انتصار شعبهِ فتبقى الغلبة لهم طالما يثبت على تلك الحالة واذا كلَّت يداه فيحطُّها يغلبهم العدوّ الى أن اسند ذراعيهِ هارون وحور وجعلا يديهِ ثابتتين الى مغرب الشمس ففاز الاسرائيليُّون الفوز التام باعدائهم . وبذلك بيَّن الله بنوع حتي انَّهُ يمنح الغلبة للشعب اكراماً لصليب ابنهِ

وفي سفر الملوك الرابع (٤ : ٣٢—٣٧) يروى عن اليشاع النبيّ انهُ لم يُحيِ ابنَ الشونمّية حتّى تمدَّد عليهِ وجعل فاهُ على فيهِ وعينيه على عينيهِ وكفَّيهِ على كفَّيه متمثلاً بذلك صليب الربّ فنهض الصبيّ معافى وردَّهُ الى امهِ

وقد صرَّح الله بنيَّتهِ في اكرام الصليب وما أراد ان يُودعهُ فيهِ من النعمة في سفر حزقيال (٩ : ٤—٦) حيث رأى النبيّ ستَّة رجال حاملين آلات الدمار بينهم رجل لابس كتاناً « قال لهُ الربّ : اجتَزْ في وسط اورشليم وارسم « تواً » على جباه الرجال الذين ينوحون على الأرجاس التي صُنعت في وسطها » . ثم أمر الستة الرجال ان يقتلوا جميع اهل المدينة قائلاً : « لكنَّ كلّ من عليهِ رسمُ التواء لا تدنوا منهُ » . فما هذه التواء ومن اين لها تلك القوَّة العجيبة ؟ . التواء آخر الحروف العبرانيَّة كانت تُرسم في عهد حزقيال على صورة صليبنا (†) فاتَّخذها الله رمزاً الى صليب السيد المسيح الذي ينجي من الموت الابدي الذين يتَّسمون بهِ كما فسَّرهُ الآباء

وفي نفس انجيل مار يوحنَّا ما يدلّ على احد رموز الصليب الواردة في التوراة ألا وهي الحيَّة النحاسيَّة التي اقامها موسى في البريَّة على سارية كالصليب لكي ينجو

بالنظر اليها كلّ من لدغتهُ الحيّات الناريّة التي سلّطها الله على شعب اسرائيل عند عصيانهِ على موسى (اطلب سفر العدد ٢١ : ٦–٩ ويوحنّا ٣ : ١٤). وقد رأى الآباء في عصاة موسى وعجائبها رمزاً آخر الى خشبة الصليب

أمّا ابن الله فانهُ كرّر في الانجيل الطاهر انهُ اختار الصليب بل حرّيتهِ ووضع فيهِ نعمة الخلاص فقال غير مرّة انهُ «ينبغي ان يُرفع ابنُ البشر .. لكي لا يهلك كلّ من يؤمن بهِ» (يوحنّا ٣ : ١٤–١٥) وقال لليهود انهُ سيرفعون قوّتهُ الالهيّة وشخصهُ الكريم يوم يرفعونهُ على الصليب «اذا رفعتم ابن البشر فحينئذٍ تعرفون اني انا هو» (يوحنّا ٨ : ٢٨) لا بل صرّح انهُ بارتفاعهِ على الصليب سيحرب مملكة الشيطان ويجذب العالم الى عبادتهِ «الآن يُلقى رئيس هذا العالم خارجاً وانا اذا ارتفعتُ عن الارض جذبتُ اليّ الجميع» (يوحنا ١٢ : ٣١–٣٢) فصار الصليب منذ ذاك الحين كمغناطيس عجيب جذب الشعوب كلها عند اقدام السيّد المسيح بل صار السمةَ «وختمَ الله الحيّ» الذي رآهُ يوحنا في سفر الرؤيا (٧ : ٢–٥) قد خُتمت بهِ عباد الله على جباههم ليحيوا حياةً ابديّة

فلا عجب في كون المؤمنين اتخذوا الصليب بعد ذلك كقبلتهم ومنحى عبادتهم لأنهم باكرامهِ كانوا يبتون اكرام ذاك الذي عُلق عليهِ ليفدي العالم بموتهِ . وقد شاع ذلك في قرون النصرانيّة الاولى حتى ان ترتليانوس ذكر في دفاعهِ عن المسيحيين في القرن الثاني للمسيح (Tertullien: *Apol.* VII, 2) بان النصارى قد عُرفوا في زمانهِ بعبّاد الصليب. وما كان انتصار النصرانيّة على الوثنيّة الّا بقوّة الصليب يوم رأى قسطنطين مع جيشهِ في رابعة النهار بسمته المحيية مع هذه الالفاظ النبويّة «بهذه العلامة تنتصر» . وهذه عشرون قرناً تسير الكنيسة وتتوّج في كلّ انحاء العمور والصليب أليفها بهِ تنال ما لا ينالهُ اراكنة العالم بجيوشهم وغناهم وجاههم وفنون سياستهم

فالصليب حياة الكنيسة لا يباشر كهنتها امراً ولا يقيمون رتبةً ولا يوزّعون سرّاً الّا تتقدّمهُ بركة الصليب . وكذلك في كلّ الحفلات الدينيّة في طوافات القربان والزيّاحات وفي استقبال ارباب الكنيسة للصليب المقامُ الاوّل . وكل يعلم انّ المسيحي سلاحهُ اليومي اشارة الصليب يرسمهُ على جبهتهِ وصدرهِ فيقوى على مشقات العالم وتجارب ابليس وشهوات قلبهِ

٢ الصليب في نظر الهيئة الاجتماعية

«خلق المرء للكفاح والجهاد لانّ» حياة الانسان على الارض تجنُّد » (أيوب ٧ : ١) فانه منذ مولده الى آخر نسمة حياته يحتاج الى الدفاع عن نفسه لحفظ كيانه فتارة ينازل تقلّبات الزمان وحيناً يصاول جود الارض وطوراً يناوش الحيوان القتال وكم يحتاج ان يناهض ذوي جنسه من سلطان عات ورفيق خؤون ومرؤوس محتال . ونوق كلّ ذلك يجد في نفسه حرباً عواناً بما يتنازعهُ من الاميال والشهوات

فهذا الجهاد اليوميّ لا نجاةَ منهُ وأولى ما يُعبَّر عنهُ مجازاً اتخاذهو الصليب فانّ جذعهُ يدلُّ على الطريق المستقيم الذي تقطعهُ العارضتان فكأنهما تحولان بينهُ وبين امتداد طوله . فصار الصليب بين الشعوب المتمدّنة كنايةً عن صعوبات الحياة والبلايا التي تعرض لها فتقاوم نزعاتها

والسيد المسيح اوّل من سبق واتّخذ الصليب رمزاً عن آلام هذه الحياة واوجاعها المختلفة وضروب النوائب والشدائد فجعل الخلاص متوقفاً على حمل هذا الصليب اعني بالصبر وطول الأناة . فطالما كان يردّد على مسامع تلاميذه والجماهير المتقاطرة لاستماعه : « من اراد ان يتبعني فليكفر بنفسه ويحمل صليبهُ كلّ يوم ويتبعني » (متى ١٠ : ٣٨ ومرقس ٨ : ٣٤ ولوقا ٩ : ٢٣) وايضاً : « من لا يحمل صليبهُ ويتبعني فلن يستحقّني (متى ١٠ : ٣٨) « ولا يستطيع ان يكون لي تلميذاً » (لوقا ١٤ : ٢٧) وقد ادرك ذلك تَبَعة المسيح فانّ رسول الامم يصرخ قائلاً (غلاطية ٢ : ١٩) : « صُلبت مع المسيح » ويقول (٦ : ١٤) : « أمّا انا فحاشا لي ان افتخر الّا بصليب ربّنا يسوع المسيح الذي به صُلب العالم لي وانا صُلبتُ للعالم » ويقول ايضاً محرّضاً المؤمنين على النظر الى الصليب ليشدّدوا نفوسهم على مصائب هذا العالم (عبرانيّون ١٢ : ١—٢) : « ولنُسابق بالصبر في الجهاد الذي امامنا ولنجعل نظرنا الى مُبدئ الايمان ومتمّمه الذي بدلَ السرور الموضوع امامهُ وتحمّل الصليب مستخفّاً بالخزي »

والحقّ يقال انّ الصليب اضحى في العالم اعظم قوّة وافضل تعزية بين صروف الدهر فاليه يرفع المريض نظرهُ فيسلّم ارادتهُ لربّه بين اوجاعه فيحتملها بصبر . يراهُ العامل في اشغاله الشاقّة فيواظب على عمله بعرق جبينه دون تذمّر ولا تأفف اذ ليس

العبد افضل من سيّده . يشاهدهُ الفقير فيحتمل آفات دنياهُ . ترنو اليهِ الفتاة العذراء فتجحد العالم وملذّاتهِ وتتفانى في خدمة المؤسسين وتصبح اما لليتيم واللقيط وخادمةً للمريض وللشيخ العاجز . هو شعار المتضوين في جماعات الصليب الاحمر . هو الذي يسند الكاهن في تخصيص نفسهِ لخدمة القريب طول حياتهِ بجعلهُ الراهب على صدرهِ فيسهل عليهِ اقتباس الكمال بحفظ نذورهِ الثلثة العفّة والفقر الاختياري والطاعة للرئيس . يمسكهُ الرسل بيدهِ فيخوض البحار ويقطع الصحارى ليبشّر بهِ في الشعوب المتسكعين في ظلمات الموت . يعتصم بهِ الشهيد في محنهِ وعذاباتهِ الاليمة فتقوى نفسهُ على احتمال الجلد والسيف والنار والوان الموت بفرح وسرور . والفضل في كل ذلك الى صليب السيّد المسيح . انزع الصليب من العالم فيعود العالم الى همجيّتهِ فقد صدقَ وايمُ الله صاحب الاقتداء بالمسيح حيث قال (لك ٢ ف ١٢) : « في الصليب الخلاص وفي الصليب الحياة وفي الصليب النجاةُ من الاعداء . وفي الصليب فيض العذوبة السماويّة وفي الصليب قوّة النفس وفي الصليب فرح الروح وفي الصليب ذروة الفضيلة وفي الصليب كمال القداسة . . . لا طريق الى الحياة والسلام الثابت الّا طريق الصليب »

ومن عجيب امر الصليب ان اممًا قديمة أوحي اليها بما يتضمّنهُ الصليب من الاسرار الغامضة . فهذا الصليب المُعرّى (croix ansée) تراهُ في عاديت مصر ☥ وآثارها المتعدّدة وهو عندهم دليل الحياة يقرّبهُ احد الآلهة من فم ملوك مصر لينفخ فيهِ نسمة الحياة . فلمّا انتشرت النصرانيّة في وادي النيل لم يأنف المسيحيّون من اتخاذ ذاك الصليب دلالةً على الحياة السرمديّة التي يمنحها ابن الله بصليبهِ المحيي . وهذا الصليب الهندي زغانتيكا ┼ تخيّلهُ اهل الهند مزدانًا بقوّة علويّة تأتيهِ من الأفلاك فلم يصدق معناهُ الرمزي الّا بصليب الرب وقوّتهِ العلويّة المتعدرة من فوق الافلاك

وان بقي الصليب خفيًا محتقرًا بين قسم من البشر سوف تظهر عظمتهُ في اليوم الاخير حين « تلوح علامة ابن البشر في السماء » (متى ٢٤ : ٣٠) فيأتي بآيهِ وجلال ويدين العالم . وانما يكون الصليب شاهدًا على ما بذلهُ لخلاصهم فيشكر المختارون فضلهُ ويعترف الهالكون بعدلهِ فيكون للصليب الفوز الاخير شاء العالم او ابى

٣ الصليب في الصناعة والفنون الجميلة

ليست صورةٌ في العالم اصابت في الصناعة والفنون الجميلة سهماً اوفى من صورة الصليب فانَّ في هندستهِ البسيطة ما وجدهُ ارباب الفنون باعثاً لشحذ قرائحهم. فقلَّما ترى فنًّا او صناعة الَّا دخل الصليب في جملة اختراعاتها

فمنذ اتَّخذ قسطنطين الصليب كراية لجيوشهِ لتتقدَّمهم في ساحات الحرب اقتدى بهِ كثيرون من الملوك فكانت الجنود تقتحم الاخطار في ظلّ الصليب لا تهابُ عدوًّا. وكثيرًا ما كانوا يجعلونهُ على صدورهم كما فعلوا في الحروب الصليبيَّة اذ تطوَّعوا لفتح الاراضي المقدَّسة

وقد عرف العرب نفسهم الصليب كعَلَم تارةً ينصبونهُ فوق ابنيتهم تبرُّكاً كما قال النابغة :

ظلَّت اقاطيعُ انعامٍ مؤبَّلةٍ لدى صليبٍ على الزَّوراء منصوبِ

وتارةً يقدّمونهُ امام طلائعهم في الحروب كما قال الاخطل :

لمَّا رأونا والصليبَ طالعا خلَّوْا لنا دارانَ والمزارعا

وكذلك الأُسر الملوكيَّة وذوو المناصب الرسميَّة واشراف الدول ربَّما اتَّخذوا لهم شعارًا (آرمة) تزينهُ الصلبان في ألوانها المختلفة وصورها البديعة

وقد وجد المهندسون في ابنيتهم خواصَّ عجيبة لشكل الصليب سواء كانت تلك الأبنية دينيَّةً او مدنيَّة. فكم يعمدون في هندستهم الى المُصلَّبات لمتانتها وصبرها على آفات الزمان. فانَّ قصورًا شهيرة من قصور الملوك ازدانت باشكالهِ. امَّا الكنائس فانَّ منها عددًا لا يُحصى ممَّا بُني على صورة الصليب إمَّا الصليب المستطيل المعروف باللاتيني وإمَّا الصليب المربَّع المعروف باليوناني مع تفنُّن عجيب في وضعها وتنظيمها ونقشها. وربَّما فُرش بلاطها بالحجارة الملوَّنة على شكل الصلبان او مُثل الصليب في جدرانها على هيئات رائعة بالفسيفساء.

وان عدلتَ الى فنّ التصوير وفنّ النحت وجدتَّ عجائب اخرى من الصناعة. فقلَّما تجد كنيسة او متحفاً فنيًّا الَّا يقع نظرك على صور المصلوب او الصليب مما يُعزى لكبار المصوّرين ينافس بعضهم بعضاً في رسمها على هيئات تأخذ بمجامع

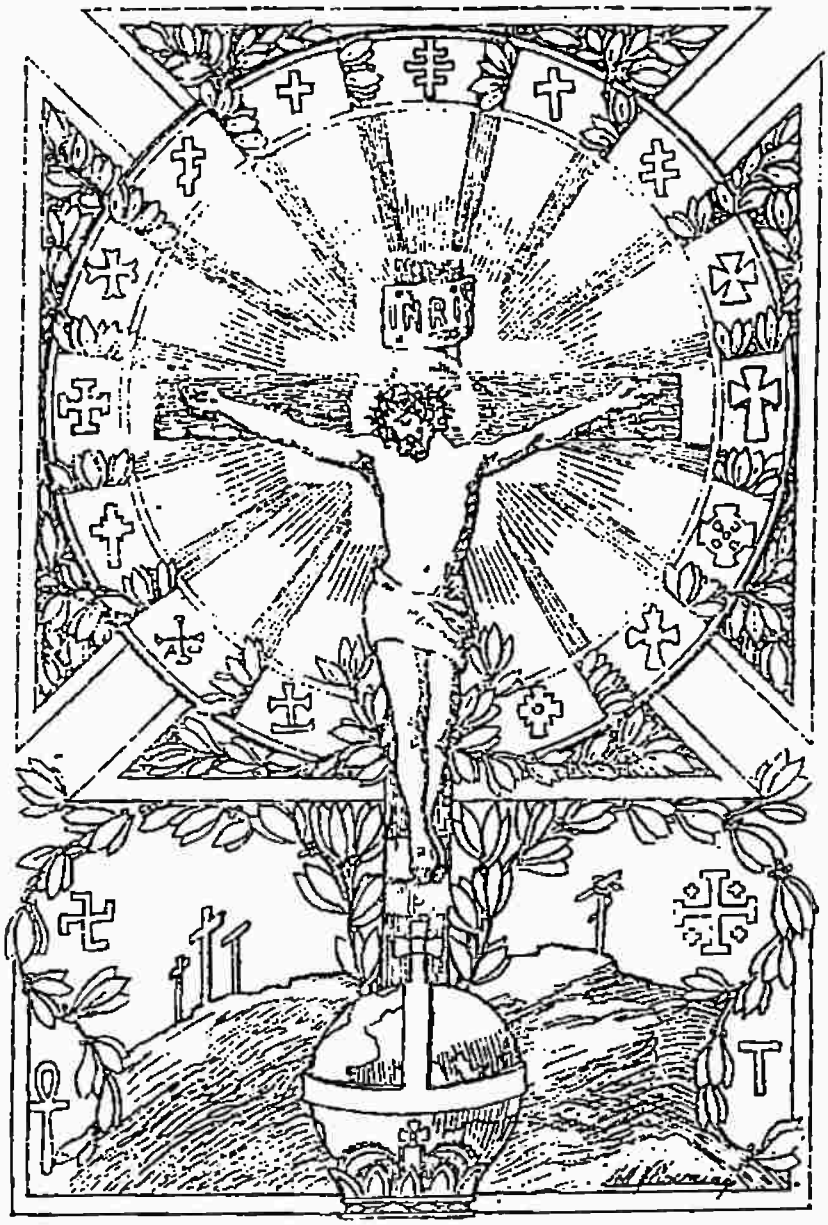

تمثل هذه الصورة صليوت الرب وراءهُ الصليب الاحمر تنبعث منهُ اشعة تنتهي الى دائرة على اطرافها الصليب المزيّن وفي اعلى الدائرة الصليب البابويّ وعن جانبيهِ الصليبان اللاتيني واليوناني ثمّ الثوريني والصقلي ثمّ المالطي والانجري ثمّ اليوليالي والمطرّف ثمّ الشرشاني والارمني ثمّ الشرقي والبوزنطي ثمّ المرقم والتردديّ. والصليب ياكز على جبل الجلجلة في اسفل كرة الارض يعلوها الصليب وتحتها تاج ملوكيّ بصليبهِ وعلى الجانب الايمن الصليبان الاورشليميّ والموسوي والسراني وعلى الجانب الأيسر الصليبان القديسان الهندي والمصري

الابصار ومثلها الصلبان المنحوتة التي تُنصب في الساحات وعلى الجبال وفي المقابر فانَّ لكثير منها اشكالاً بديعة تروق النظر اشتهر صُنّعها بابتكارهم لهيئاتها . وقد أُعجب بها عرب الجاهليَّة فاشادوا بمحاسنهـا وهم يدعون الصليب دُمْيـةً ويضربون المثل بحسنها

وكذلك الحياكة والنساجة فقد دخل الصليب في نقوشها سواء كانت موادُّها من الخزّ ام من الارجوان والديباج والقصب حيناً بالنسج وحيناً بالتطريز او التخريم فهناك الطنافس والبُسط العجيبة الصُّنع والاقمشة المختلفة الغالية الثمن والثياب الفاخرة . وقد شاع بين العرب اتقانهم نقش الاقمشة بالصلبان . فانَّ اهل اليمن النصارى اشتهروا بذلك كما اثبتناهُ سابقاً (اطلب كتاب النصرانيَّة وآدابها بين عرب الجاهليَّة ص ٣٥٧)

ونقوش الصليب على الحُلل البيعيَّة والثياب الكهنوتيَّـة ابدعُ وافخر واكثر تفنُّناً يُرى رسمهُ المبارك عليها بكل اصناف الحلي والزينة كأن العقل البشري أفرغ الوسع في ابتداع النقوش الرائعة ليكسوا الصليب حسناً وبهاء

وكما تفنّنوا في نقش الصلبان كذلك اجتهدوا في تشكيل هيئاته فترى الزّين المختلفـة في تركيبهِ فتارةً يُحلُّونهُ بالاشعَّـة المنتشرة في زواياه وتارةً يجعلون رأسهُ وروسَ عارضَيه على اشكال هندسيَّة جميلة منها مثلثة الاطراف ومنها مربعـة ومقوَّسة ومقبَّبة وقد ضاعفوا عارضتي الصليب وثلّثوها دلالة على سلطان بعض رؤساء الكنيسة . فانَّ للقدّاد الرسوليين والجاثالقة صليباً ذا عارضتين مزدوجتين وللحبر الاعظم صليباً ذا ثلثة عوارض . وطوراً يركزونهُ على قواعد فنيَّـة تزيد في بهجهِ وجمالهِ . وربَّما نقشوا على جذرهِ وعارضتَيهِ صور آلام الربّ وصور الـذين كانوا عند صليبهِ في الجلجلة كوالدتهِ العذراء مريم والقديس يوحنا الحبيب وتحت قدميهِ صورة جمجمة آدم الذي كفّر يسوع المسيح عن خطيئتهِ . وكذلك العنوان الذي جعلهُ بيلاطس فوق رأسهِ «يسوع الناصري ملك اليهود» تلطَّفوا بنقشهِ وتزيينهِ

وما قولنا عن الموادّ التي عمدوا اليها لتصوير الصليب فمن الصلبان ما هو من خشب ثمين كالارز والابنوس والسَّنط . ومنها بالحجارة وكلّ ضروب الرخام والمرمر . ومنها من اصنـاف المعادن كالحديد والنحاس والفضَّة والـذهب . ومنها بالعاج والحجارة الكريمة واللآلئ المختلفة والماس . ينصبونها فوق الهياكل ويزينون بها المعابد والمقابر

والقاعات الملكيَّة والنوادي العموميَّة . وللجوهريّين في هذه المصنوعات اليد الطولى يصوغونها حلياً تتقلّدها الاوانس قال عبدالله بن العبّاس في فتاة :

كم لثمتُ الصليب في اليد منها كهلالٍ مكلَّلٍ بشموسِ

وكانوا يزيدونها حسناً بما يرقمون فيها من الحروف المختزلة عن آيات كتابيَّة او صفات رمزيَّة لاهوتيَّة يجدلونها جدلاً حسناً على صورة اقلام نادرة المثال . وهم يُحلّونها بالمينا الذهبيَّة واللؤلؤة ويدسّون الذخائر الثمينة لاسيَّما ذخائر الآلام

ومما جعلوا فيه صورةَ الصليب النقودُ والمسكوكات الدوليَّة ذهبيَّة وفضيَّة ونحاسيَّة . فمن ينظر الى مجموعها يأخذهُ الاندهاش في تفنّن اصحابها في رسم الصليب باشكالهِ المتعدّدة في ضمن تلك النقود تارة وحده وتارةً في ايدي ملوك زمانهم . وقد وُجدت لقسطنطين الكبير ولخلفه وللثيتيان الاوّل مسكوكات رُقم عليها الصليب منذ القرن الرابع للميلاد

وما قولنا بتيجان الملوك التي زيَّنوها بالصليب فهو يعلوها كأنهُ مالك على رقاب لابسيها . ومثلها صوالج الملوك وعصي الاساقفة الرعويَّة التي يعلوها الصليب

وقد جعلوا الصليب منذ عهد مديد علامة الشرف وشعار النبوغ . فمعظم الاوسمة التي تمنحها الدول للذين تفانوا في خدمتها انَّما هي صلبان ثمينة تُعلَّق على صدور الابطال ونوابغ الرجال والذين امتازوا بخدمهم نحو وطنهم . بل قلَّما اتَّخذت الدول الاوربيَّة الكبرى اوسمةً شرفيَّة الَّا وجعلتهُ على اسم وصورة الصليب

فاين يا ترى كلّ ذلك من عار الصليب وهوانهِ أليس يصحُّ بما سبق لنا وصفهُ قول الرسول انَّ الصليبَ الذي كان عثرةً لليهود واتَّخذهُ الوثنيُّون كهزء وسخريَّة هو حقيقة قوَّة الله وحكمتهُ العجيبة كما تنبَّأت بحرفها نبوَّة السيّد المسيح القائل : « وانا اذا ارتفعتُ عن الارض اجذبُ اليَّ الجميع » . فنسألهُ تعالى في الختام ان يكشف عن عيون الذين يجهلون نعمة الصليب ما اردعهُ فيهِ من البركات في هذه الدنيا فيسيرون في طريقهِ الملكيَّة الى السعادة الابديَّة